كيف عرفت الرافعي

للأســـتاذ محمود أبو رية

[ننشر هذه الكلمة بعد انقضاء ستة أعوام على وفاة أديبنا الكبير مصطفى صادق الرافعي طيب الله ثراه ، ونرجو أن تكون تحية طيبة منا نقابل بها ذكراه ، وآية صادقة على أنه مهما باعدت بيننا وبينه السنون ذاما لن ننساه .]

(أبو رية)

رغب إليّ بعض إخواني من الذين يعرفون ما كان بيني وبين أديبنا الكبير مصطفى صادق الرافعي رضي الله عنه من وُصْلة الصداقة ، وما ربطني به من آصرة المحبة ، أن أنشر بعض ما لدي من كتبه الخاصة التي كان يرسلها إليّ ؛ فصادفت هذه الرغبة مني قبولاً وارتياحاً ، لأنها من أمانيّ العزيزة ، التي كنت أود من قبل أن أقوم بها مع ما هو واجب عليّ أداؤه للناس في هذه الحياة لولا مارمتني به الأقدار من مصائب في أولادي ومصاعب في حياتي حتى أصبحت ممزق القلب مشرد اللب لا أكاد أحسن عملاً أتولاه ، ولا أجيد أمراً أقوم به

ولقد كان أشد هذه الضربات على تلك التي نفذت إلى صدر أكبر أولادي بعد أن أتم دراسته العالية فخر منها صريعاً

وإذا كان نشر هذه الكتب سيكون فيه شيء من الخير للأدباء بما سيرون فيها من آراء أديبنا الرافعي وفتاواه في أغراض كثيرة من الأدب ورجاله ، فإنه سيكشف لهم كذلك عن جوانب جديدة من أدبه وحياته لم يطلعوا عليها من قبل ، ويعرفون كيف كان يكتب رسائله الخاصة التي تصدر في الغالب بغير أن يبالها تهذيب أو يصيبها تنميق ، وإنما ترسل إرسالاً من عفو الخاطر وصفو الهاجس ، وهذه ناحية لا يتم تأريخ رجال الأدب وأمراء البيان إلا بمعرفتها والاطلاع عليها

ولقد كنت أظهرت الأستاذ الكبير صاحب الرســـالة في بعض أحاديثي معه على هذه الأمنية فرحب بها وطلب مني تحقيقها .

على أني رأيت أن أقدم لما سأنشره من كتب الرافعي كلمة أذكر فيها كيف عرفت هذا الأديب الحجة ، والسبب الذي جعلني أتصل به ذلك الاتصال الذي نما حتى صار صداقة وثيقة امتدت بيننا أكثر من ربع قرن خلطني فيها بنفسه ، واصطفاني لصحبته ، حتى لقد كان يشاورني في خاص أحواله ، ويظهرني على مكنون أسراره

وليس من همي اليوم أن أعرض لتأريخ هذه الصداقة ، ولا يتجه قلمي لبيان ما كان لها من أثر وما كان فيها من خير لأن لذلك يوماً أرجو أن أبلغه

ترجع معرفتي بأديبنا الكبير إلى أوائل سنة ١٩١٢ . ذلك أن الحرب الطرابلسية كانت حينئذ مستعرة بين الترك والطليان . وكان الأمير الجليل شكيب أرسلان قد ألم بمصر في سفره مع بعثة الهلال الأحمر إلى طرابلس الغرب ، وما كاد يحط بها رحاله حتى أشرق على الناس نور بيانه فاستنارت به الأندية واستضاءت به وجوه الصحف ، وكنت يومئذ في صدر شبابي والأدب العربي قد غلب على حبه حتى أغرمت به غراماً ؛ ولكني لم أكن أعرف كيف السبيل إلى دراسته ولا قرأت من مصادره إلا كتباً قليلة كان قد أشار عليّ بقراءة بعضها العالم الكبير محمد فريد وجدي بك حفظه الله .

ولما رأيت الأبصار قد اتجهت إلى الأمير شكيب أرسلان ، وذكره قد استفاض حتى نفذ إلى كل مكان ، وأن رجال الأدب قد ذهبوا في الإعجاب به إلى أن لقبوه بأمير البيان ، دفعتني الرغبة المشبوبة بين جوانحي لدراسة الأدب إلى أن أتوجه له بكلمة أرغب إليه فيها أن يبين لي وللذين هم مثلي في هوى الأدب كيف يبلغون منه غايتهم ، فأجابني حفظه الله بجواب طويل ملأ صدر العدد الذي خرج من جريدة المؤيد في ١٩ فبراير سنة ١٩١٢ وكان صدر هذه الجريدة يزين كل يوم بمقال ممتع من تحبيره في الأدب والسياسة ؛ وكان المؤيد يقدم لكل مقال له بهذه العبارة :

« لسعادة الكاتب العثمانى الكبير صاحب الإمضاء » أما الأمير فكان يرمز لاسمه فى أعقاب ما يكتب بهذا الحرف (ش) وقد ساق الأمير الجليل فى هذا الجواب القيم الذى لا زلت أحتفظ به وأعده من نفائس البيان نصيحة غالية لكل من يريد دراسة الأدب ، ثم أنشأ بعدها يبين للناس طريقته هو التى اتخذها فى دراسته . ولما عرض للمصادر والكتب التى يجب على كل أديب أن يقرأها أخذ يثنى ثناء طيباً على كتاب « تاريخ آداب العرب للرافعى » وكان قد صدر يومئذ الجزء الأول منه ، فكان مما قاله هذه العبارة البليغة : « لو كان هذا الكتاب خطًّا محجوباً فى بيت حرام إخراجه منه لاستحق أن يحج إليه ، ولو عكف على غير كتاب الله فى نواشئ الأسحار لكان جديراً أن يعكف عليه »

ومن ثم عرفت الرافعى وفضله ولم ألبث أن أقبلت على ما له من كتب أدرسها وأنتفع بها . وبعد انقضاء بضعة شهور على ذلك رأيت أن أجاذبه حبل المودة وكان ذلك فى أواخر سنة ١٩١٢ ولكن أنى لى ذلك وأنا لا أعرف أين مكانه ولا بأى عمل يعمل ؟ على أنى استخرت الله وأرسلت إليه خطاباً جعلت عنوانه على القاهرة إذ ظننت أنه من أهلها وما كان أشد فرحى إذ تلقيت منه بعد أيام قليلة أول جواب وهذا الجواب مؤرخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٢

وقد امتدت بينى وبينه بعد ذلك أسباب المراسلة طوال السنين التى صادقته فيها حتى بلغ ما لدى من كتبه أكثر من ثلاثمئة خطاب ، منها نحو مائتين فى شؤون أدبية وغير أدبية يصح نشرها كلها وإن كان فى بعضها ما قد يؤلم بعض أدبائنا المعاصرين بما جاء عنهم فيها

أما سائر الكتب وهى أكثر من مئة فهى فى أمور خاصة بى وبه لا يمكن نشرها ولا يصح إظهار أحد على ما جاء فيها .

(المنصورة) محمود أبو رية

٢٧ ، ٢٠

أُقْصُوصة

ذكريات . . .

حِينَمَا كُنْتُ أَرَاهَا وَتَرَانِى   مِنْ بَعِيدٍ كَلُتَمَاعَاتِ الأَمَانِى
فَتَقَارَبْنَا عَلَى بُعْدِ الْمَكَانِ   وَتَحَابَبْنَا عَلَى رَغْمِ الزَّمَانِ
وَبَعَثْنَا مِنْ أَمَانِينَا مَدَاهَا
فَتَلَاقَيْنَا عُيُوناً وَشِفَاهَا ! !

لَسْتُ أَنْسَى وَقْفَةً عِنْدَ الْغَدِيرِ   وَهَجِيرُ الصَّيْفِ كَالشَّوْقِ الْمُثِيرِ
فَخَلَقْنَا نَحْنُ مِنْ نَارِ السَّعِيرِ   جَنَّةً لِلْحُبِّ فَاضَتْ بِالْعَبِيرِ
قَدْ خَلَقْنَاهَا وَسَوَّيْنَا رُبَاهَا
وَعَلَيْنَا حَرَّمَ اللهُ جَنَاهَا ! !

لَسْتُ أَنْسَى فِى صِبَانَا مَرْبَعاً   كَانَ مَلْهَانَا نُقَدِّيهِ مَعَا
فَرَكِبْنَا اللَّهْوَ وَالدَّهْرُ سَعَى   لَا الصِّبَا دَامَ وَلَا الدَّهْرُ رَعَى
رَبَّةَ الآمَالِ وَاسْتَبْقَى صِبَاهَا
وَكَأَنِّى لَمْ أَكُنْ قَبَّلْتُ فَاهَا !

أَيْنَ مِنِّى جَنَّةُ الأَمْسِ الْقَرِيبِ ؟   أَيْنَ مِنِّى خَمْرَةُ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ ؟ !
أَيْنَ مِنِّى رِقَّةُ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ   يَا حَبِيبِى أَيْنَ مِنِّى يَا حَبِيبِى
جَلْوَةُ الْحُبِّ وَإِشْرَاقُ ضُحَاهَا !
خَيَّمَ اللَّيْلُ عَلَيْهَا فَمَحَاهَا ! !

أَصْبَحَ الْحُبُّ وَأَمْسَى ذِكْرَيَاتٍ   وَانْقَضَى عَهْدُ الْهَوَى وَالصَّبَوَاتِ
وَتَوَلَّى الْعُمْرُ إِلَّا زَفَرَاتٍ   لَمْ تَزَلْ تُشْعِلُ قَلْبِى بِشَكَاتِى
أَيْنَ عَيْنَاهَا وَأَيَّامُ هَوَاهَا ؟ ؟
لَيْتَنِى كُنْتُ ، أَنَا وَحْدِى ، فِدَاهَا !

(كوم النور) أحمد أحمد العجمى